

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ورقة بعنوان

اختيار الإنسان بين المؤثرات والمسؤولية

إعداد:

د. عواطف أحمد الإمام

أستاذ مساعد

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

المستخلص

خلق الله تعالى الإنسان حراً مختاراً ، ومنحه العقل ، وبعث له الرسل الذين يبينون له الطريق المستقيم ، ولكنه سبحانه جعل في خلقه الشهوات التي تلح رغبة في إشباعها ، فيعقلها بعقله ، واتباعه للمنهج السماوي . وسلط عليه إبليس ليغويه ويزين له الباطل ، لكنه حذر من طاعته وبين له مدى عداوته ، كما بين له طرق إغوائه ، وكيفية مقاومته وصدده .

وجعل الإنسان يعيش مجتمعاً بغيره من أجل تبادل المنافع في الحياة والمعاش ، فيتأثر الإنسان بغيره ، وأثر الإنسان في أخيه الإنسان أكبر من تأثير الشيطان ، لوجود العقل وإمكانية الحجة والإقناع ، لذلك كان الرسل من البشر . وقد حذر الإسلام من التقليد والاتباع من غير تفكر وتدبر، ودعا إلى إعمال العقل ، والاستقلال بالرأي .

والهوى تأثيره شديد في الإنسان ، لأنه هوى نفسه التي بين جنبيه لا يمكن الانفكاك منها ، ويمكن مقاومته باتباع منهج الله تعالى ، وقد منح الله تعالى الإنسان القدرة التي يمنع بها نفسه عن اتباع هواها . فبعد العلم بكل ذلك لو ترك الإنسان مجالاً لهذه المؤثرات لتؤثر في اختياره ، فخالف منهج الله تعالى ، ثم تبين له خطأ هذا الاختيار فرجع إلى الله ، تلقاه الله تعالى برحمته الواسعة ، وإن أصر على ذلك الاختيار فهو اختياره الحر الذي يجب أن يتحملة تحملاً كاملاً .

أهداف البحث

بيان أن المؤثرات لا تسلب الإنسان اختياره

توضيح كيفية مقاومة المؤثرات المختلفة

اثبات تحمل الإنسان مسؤولية اختياره رغم وجود المؤثرات

اختيار الإنسان بين المؤثرات والمسؤولية

المقدمة

كرّم الله عز وجل الإنسان ، وفضّله على كثير من خلقه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وخصه بالعلم ، ومنحه حرية الإرادة ، وجعله خليفة في الأرض ، ومنحه العقل الذي به التمييز بين الخيارات المتعددة، وسخر له ما في الأرض جميعاً . ومنحه حرية في حدود ما كلف به ، وكلفه في حدود طاقته وقدراته وعلمه، وهداه لطريق الخير الذي به الفلاح ، وأنذره وأعلمه طريق الشر الذي به الخسران المبين في الدنيا والآخرة ، ولم يقهره ولم يجبره على السير في أي من الطريقتين ، بل ترك له الحرية المطلقة في الاختيار، حتى يكون تحمله نتيجة اختياره تحملاً كاملاً ، وجزاؤه عليها جزاء عادلاً . ولكن هنالك بعض العوامل التي يكون لها الأثر الواضح والكبير في اختيار الإنسان ، كالشيطان والإنسان والهوى . فهذا البحث يناقش الآتي :

- مدى تأثير الشيطان في اختيار الإنسان ، وهل هذا التأثير يؤدي إلى تسلط الشيطان عليه فلا يكون حراً ؟ أم أن الإنسان هو الذي يختار ذلك ويستسلم طوعاً وينفذ مراده ؟ وهل في استطاعة الإنسان أن يقاوم ذلك ؟ .
- وما مدى تأثير الإنسان في الإنسان ؟ وهل يمكن مقاومته ؟ .
- وهل يمكن للهوى أن يؤثر في العقل فيحدث خللاً في الاختيار ؟ وكيف يتم ذلك ؟ وهل يمكن مقاومته ؟
- وهل ترفع المسؤولية عن الإنسان بوجود هذه العوامل ؟

تأثير الشيطان

الشيطان متمثل في إبليس قد سبق خلقه خلق الإنسان ، ونزل معه الأرض ، وقد سبقت عداوته لآدم عليه السلام منذ أن كان آدم جسداً لا روح فيه ، وفي بيان قصة المعصية الأولى . يقول تعالى : " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

أبي" ^١ . وقد ورد رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام في كثير من الآيات . وقد ذكر سبب رفضه السجود لآدم ، ويتبين ذلك من قوله تعالى : " قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ " ^٢ . وقوله : " قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ " ^٣ . فالذي منعه السجود لآدم إحساسه بالعزة والأفضلية على آدم عليه السلام ، فاستكبر على تنفيذ أمر الله تعالى ، فكان جزاؤه الذلة والصغار والطرود من الجنة ، واستحقاق اللعنة إلى يوم الدين ، وبرغم ذلك يسأل الله تعالى أن ينظره إلى يوم البعث ، فيجيب الله طلبه بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم . وهنا يعلنها إبليس صراحة بأنه سيغوي بني آدم وسيقوم جميع أنواع الحيل من أجل ذلك ، حسداً وحقدًا على آدم وذريته . يقول تعالى : " قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ " ^٤ . ثم إن الله تعالى أمر آدم وحواء أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ، ولا يقربا شجرة بعينها : " يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ " ^٥ . ثم حذرهما من الشيطان ، مبيِّنا لهما عداوته لهما بقوله : " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى " ^٦ . ولكن إبليس المترصد لهما سرعان ما بدأ بالكيد لهما ، وخدعهما بأنه إنما يريد نصحهما ، مغلظا القسم بذلك . ومن ثم بيَّن الله تعالى أنَّ العداوة سيكون مستمرا بين آدم وذريته ، والشيطان وقبيله ، وهنا تكون معركة الإنسان مابين طاعة الله وولايته ، وطاعة الشيطان وولايته . يقول سيد قطب : إن قصة الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة بعد السكر ، والندم وطلب المغفرة ، إنما هي تجربة البشر

^١ البقرة : ٣٤

^٢ الحجر : ٣٢

^٣ ص : ٧٦

^٤ الأعراف : ١٤-١٨

^٥ الأعراف : ١٩

^٦ طه : ١١٧

المتجددة المكررة ، لقد اقتضت رحمة الله تعالى بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة ، التي سيتعرض لمتلها طويلاً استعداداً للمعركة الدائمة^٧ .

فيهم من ذلك أن المعصية تحدث لبيان طبيعة الإنسان وأنه ليس معصوماً ، وبيان كيفية التوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وعدم الإصرار علي المعصية ، ومدى رحمة الله تعالى وعفوه عن من آب إليه نادماً مستغفراً ، وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم : " كَلُّ بن آدَمَ خَطَاةٍ وَخَيْرُ **الْخَطَّائِينَ** التَّوَّابُونَ " ^٨ وقد حذر الله تعالى الإنسان من عداوة الشيطان حاثاً له على عدم طاعته والإنخداع له ، لأنه لا يريد له إلا الشر وزوال النعمة : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " ^٩ . ويقول : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ " ^{١٠} . ويقول : " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " ^{١١} .

فمن استجاب لله وعقل نفسه من اتباع الشيطان نجا ، ومن انساق للشيطان واتبع خطواته ونسي ذكر الله تعالى ، صار عبداً للشيطان يتحكم فيه .

مداخل الشيطان وطرق كيدته للإنسان

بعد أن رفض إبليس السجود لآدم وطرده من الجنة ، طلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم البعث ، فأجابه إلى يوم الوقت المعلوم . هنا كشف إبليس للعين عن كيفية كيدته لبني آدم ، وأنه لن يترك مدخلاً إليه إلا دخله . يقول تعالى : " قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ " ^{١٢} . والصراط المستقيم هو الدين الحق ، فيكون شغله الشاغل هو صد بني آدم عن

^٧ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م ، ٥٩/١

^٨ سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، ، حديث رقم ٢٤٢٣ ، مسند أحمد ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب باقي المسند السابق ، حديث رقم ١٢٥٧٦ .

^٩ البقرة : ١٦٨ - ١٦٩

^{١٠} فاطر : ٦

^{١١} ياسين : ٦٠

^{١٢} الأعراف : ١٦ - ١٧

الإسلام . ففي هذه الآيات تتبين الطرق التي يتخذها الشيطان ويسلكها لإضلال بني آدم . فبيّنت الآيات الهدف العام الذي يريده الشيطان وهو إغواء بني آدم وإضلالهم ، ومن ثم بينت الآيات مداخله التي يعبر من خلالها للقيام بعمله . و هي كما يذكر الرازي: الشهوة والغضب والهوى^{١٣} . والهوى مدخل الشيطان لأن وسوسته إن لم تصادف هوى لا يكون لها تأثير ، والغضب والشهوة إذا طغتا - أو أحدهما - على العقل أضعفتا تأثيره . ثم تأتي آيات أخرى تبين كيفية كيدته وتحاييله على البشر، حتى يتساقط وراءه ، وذلك بالتزيين والإنساء ، وغرهم بالأمانى الزائفة ، كما قال تعالى : " قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ"^{١٤} . فالشيطان يزين للإنسان الباطل حتى يراه حسناً فيقدم عليه ، كما يقبح له الحسن حتى يراه قبيحاً فينفر منه .

ومن طرق كيدته أيضاً أنه ينسي الإنسان ذكر الله سبحانه وتعالى وطاعته ، وقد بيّن الله تعالى أن معصية آدم الأولى وأكله من الشجرة بسبب النسيان . يقول تعالى : "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَافِسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا"^{١٥} . ويقول : " استحوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ " . فالشيطان هو المتسبب في نسيان الإنسان ، فينسيه عهده مع الله ، وينسيه طاعة الله وذكره . فالشيطان إذا عجز عن إغواء بني آدم عن أداء الطاعات عمل على شغلهم بالخواطر المختلفة حتى ينسوا الطاعة ويتشاغلوا عنها ، ويلمس ذلك جلياً في أثناء الصلوات ، حيث يتذكر الإنسان كل ما نسيه ، بل ويخطط لغده ، ولا يكون ذلك إلا في العبادة ، فان كان الإنسان في لهو نسي كل شيء حتى نفسه ، وكان حضوره كلياً مع الله ، لأن الشيطان تركه وشأنه ما دام أنه في طاعته ، فإذا رجع إلى طاعة الله رجع هو إلى الوسوسة المسببة لنسيان الإنسان . ومن طرق إغوائه كذلك غرهم بالأمانى الزائفة التي يدفعهم بها إلى مخالفه أمر الله تعالى . يقول عز وجل على لسانه : " وَأَضَلَّيْنَاهُمْ وَلَأْمَنَّا بِهِمْ وَأَمَرْنَاهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَأَمَرْنَاهُمْ فَلْيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا " ^{١٦} . وإبليس يجري من ابن آدم مجرى الدم كما ذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن

^{١٣} مفاتيح الغيب ، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٣ م ، ١ / ٣٦٩ .

^{١٤} الحجر : ٣٩

^{١٥} طه : ١١٥

^{١٦} المجادلة : ١٩

^{١٧} النساء : ١١٩

الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِّ^{١٨} . فإبليس يعرف الإنسان حق المعرفة ، يعرف مواطن ضعفه ومدخله إليها، فقد دخل لآدم وحواء عن طريق ترغيبهم في الملائكية والخلود ، وخدعهما عن طريق القسم . يقول ابن القيم : ومن كيدته العجيب أنه يشأم النفس ، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها : قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة ، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام ، أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه ، فيهون عليه تركه حتى يتركه جملة ، أو يقصر فيه ويتهاون به ، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة ، أخذ يقلل عليه المأمور به ، ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة ، فيقصر الأول ويتجاوز الثاني^{١٩} . و مما يؤكد أن الشيطان أثره كبير وواضح على الإنسان علمه بضعف الإنسان واتباعه لشهواته ، فيسهل الوصول إليه ما لم يكن الإنسان واعياً متبصراً غير غافل ، وإلا لاستطاع أن يقوده إلى الضلال، لذا كان هذا التحذير المتكرر في آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يرد سؤال عن تسلط الشيطان على بني آدم ومدى تأثيره على الإنسان ؟

فالشيطان لا سلطان له على الإنسان ، إلا أن يدعو إلى المعصية بالحيلة من الوسوسة الخفية ، وتزيين المعصية حتى يتصورها حسنة ، أو إيهامه وإغراءه بطول الأمل ، وسعة رحمة الله تعالى ، فينساق وراءه طائعاً له عن اختيار كامل . والشيطان كما تبين لا يبأس ، إن صده الإنسان من ناحية أتاه من الناحية الأخرى لا يلين ، وإن أطاعه تمادى في ذلك وأغراه بأخرى حتى يؤدي به إلى الكفر الصريح ، وهو في خلال ذلك يمني به بأنه معه ولن يتخلى عنه ، فلا يفارقه حتى يموت على الكفر، ثم يتبرأ منه . يقول تعالى : " كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ " ^{٢٠} . فعندما يسند الكفار ضلالهم إليه ، يقول إنه لا سلطان له عليهم ، وإنما دعاهم فلبوا دعوته ، فاللوم عليهم لا عليه . يقول تعالى : " وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ

^{١٨} صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، حديث رقم ٣٠٣٩ ، صحيح مسلم ، كتاب السلام ، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بالمرأة ، حديث رقم ٤٠٤١ .

^{١٩} إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن القيم ، تحقيق طه عبدالرؤوف ، مكتبة الصفا ، مصر ، ص ١١٧ - ١١٨ .

^{٢٠} الحشر : ١٦ .

وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُؤْنِي
وَلُؤْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ٢١ . وقد بيّن الله تعالى في كثير من الآيات خذلان الشيطان للإنسان
، تنبيهاً للإنسان حتى لا يستجيب لإغوائه . فيقول : " وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا " ٢٢ .
فالشيطان لم يسلط على الإنسان ، وإنما باختياره التام تبع الشيطان فانساق لوسوسته وأطاعه
وانخدع له ، وقد بين الله تعالى أن تسليط الشيطان كان اختصاراً لبني آدم ، وأنه ليس له سلطان
إلا سلطان الوسوسة والدعوة . يقول تعالى : " وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ
يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ " ٢٣ ، قال الحسن : لم يسل
عليهم سيفاً ولا ضربهم بسوط ، وإنما وعدهم ومناهم فاغتروا ٢٤ ، ويقول القرطبي : أي لم
يقهرهم إبليس على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والتزيين ، أي ابتليناهم بوسوسته لنعلم ٢٥ .
والله قد نفي تسلط الشيطان على الإنسان تسلط القهر والإكراه ، إنما فقط له الوسوسة ،
فيتبعونه بشهوة وهوى نفس ، وقد ثبت في آيات كثيرة تسلط الشيطان على من اتبعه واتخذ
ولياً من دون الله ، أما الذين يتولون الله تعالى ويطيعونه فقد أبعد عنهم سلطان الشيطان كلياً .
يقول تعالى : " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى
الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ " ٢٦ . وهذا يعني أن تسلط الشيطان على الكفار خاصة .
يقول الله تعالى : " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ " ٢٧ . فاستنتى
الذي اختار الغواية ، والذين يكفرون بالله ويشركون به ويعصونه هم الذين يتولون الشياطين .
قال تعالى : " فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ " ٢٨ . وقال : " إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ

٢١ إبراهيم : ٢٢

٢٢ الفرقان : ٢٩

٢٣ سبأ : ٢١

٢٤ معالم التنزيل في التفسير والتأويل، أبو محمد الحسن بن مسعود الفراء البغوي ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ،
٥٠٦/٤ .

٢٥ والجامع لأحكام القرآن ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط أولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ، ج ١٤ ص ٢٩٣ ، وينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم
محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ثانية ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ٥٨٣ / ٣ .

٢٦ النحل : ٩٩ : ١٠٠ .

٢٧ الحجر : ٤٢

٢٨ النحل : ٦٣

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ"^{٢٩}. والإنسان هو الذي يختار وليه ، فالذي يؤمن بالله ويطيعه يكون ولياً لله ، والذي يكفر ويطيع الشيطان يصير ولياً للشيطان ، والله سبحانه يدعه وما اختار، فيسلط عليه الشيطان فيصيره عبداً له ، لذا كان إرسال الشياطين وتسليطهم على الكفرة ، يقول الله تعالى : " أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأً"^{٣٠} . والاستجابة لوسوسة الشيطان لا تكون إلا ممن كان في قلبه مرض، ملازماً للسيئات ناسياً ذكر الله . ويقول أيضاً: " مَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ"^{٣١} . فمن يعرض عن ذكر الله فلم يخف سطوته نسب له شيطاناً جزاءً له على كفره ، ونسلطه عليه لا يفارقه ، يزين له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى^{٣٢} . أي أنه كفر أولاً ثم رفض أمر الله تعالى ، فيكون عقوبته تسليط الشيطان عليه ، بحيث يزين له الباطل فيراه حقاً ، ويقبح له الحق فيراه باطلاً

فالشيطان لم يسلطه الله على عباده كما تبين ، إنما يكون التسليط بعد اختيار الكفر والإصرار عليه والإنغماس في المعاصي ، فلا يستطيع الإنسان فكاً منه . ولكن كيف يواجه الإنسان ويقاوم الوسوسة والتزيين بعد اختياره الإيمان ؟

مقاومة الشيطان

لقد علم الله تعالى الإنسان كيف يصد الشيطان ويدفعه ، ويدفع شره بعد أن حذره من عداوته ، وذلك بالاستعاذة بالله تعالى منه وذكره ودعائه واللجوء إليه . وقد وصف الله عز وجل الشيطان بالضعف . يقول تعالى: " إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا "^{٣٣} . وقد أمر الله تعالى في كثير من الآيات عباده المؤمنين بالاستعاذة من الشيطان الرجيم . يقول تعالى : " إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"^{٣٤} . ويقول : " إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"^{٣٥} . والشيطان ينزغ الإنسان كأنه يخنسه يبعثه

^{٢٩} الأعراف : ٢٧

^{٣٠} مريم : ٨٣

^{٣١} الزخرف : ٣٦

^{٣٢} جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط أولى ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ج ٢٥ ص ٨٦ ، تفسير القرطبي ، ١٦ / ٨٩ .

^{٣٣} النساء : ٧٦ .

^{٣٤} فصلت : ٣٦

^{٣٥} الأعراف : ٢٠٠

على ما لا ينبغي، فاستعذ بالله من شره، وامض في شأنك ولا تطعه^{٣٦}. أي اطلب النجاة من ذلك من الله تعالى بالالتجاء إليه والاستعاذة به. ورد في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء"^{٣٧}. أي أن الاستعاذة بالله من الشيطان تبعده، فهي من أنجع الوسائل التي علمها الله عز وجل عباده لدفع الشيطان، والإبتعاد عنه ومقاومة إغرائه ووسوسته. ويقول تعالى أيضاً: "وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين* وأعوذ بك رب أن يحضرون"^{٣٨}. وهمزات الشياطين هي الدفع والتحريك الشديد، وهو كيده بالوسوسة، وقيل همزاته هي ثورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه^{٣٩}. والمؤمن القوي هو الذي يملك نفسه عند الغضب ويكظم غيظه ويعفو عن أغضبه فلا ينساق وراء كيد الشيطان. يقول تعالى: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين"^{٤٠}. وفي الحديث "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"^{٤١}. فإذا شتمك أحد أو سبك فأغضبك فاتركه، فالله يرد عنك. روي عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه شتمه رجل، ونبي الله شاهد، فعفا عنه ساعة، ثم إن أبا بكر جاش به الغضب فرد عليه، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله شتمني الرجل ف عفوت و صفحت، وأنت قاعد، فلما أخذت أنتصر قمت يانبي الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه كان يرد عنك ملك من الملائكة، فلما قربت تنتصر ذهب الملك وجاء الشيطان، فوالله ما كنت لأجالس الشيطان يا أبا بكر"^{٤٢}. وكذلك ذكر الله تعالى يذهب الشيطان الذي يترصد الإنسان، لذلك كان أمره

^{٣٦} تفسير الزمخشري، ٤/ ٢٠٦.

^{٣٧} صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم ٣٧٦٢، سنن أبي داود، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام، حديث رقم ٣٢٧٣، سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به إذا دخل بيته، حديث رقم ٣٨٧٧.

^{٣٨} المؤمنون: ٩٧: ٩٨.

^{٣٩} تفسير الرازي، ١٢/ ١١٩، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ٩/ ٦٢، تفسير القرطبي، ١٢/ ١٤٨.

^{٤٠} آل عمران: ١٣٤.

^{٤١} صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم ٥٦٤٩، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث رقم ٤٧٢٢.

^{٤٢} تفسير الطبري، ٢٤/ ١٢٨.

سبحانه وتعالى بذكره كثيراً وفي كل حال ، يقول تعالى: "فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ" ^{٤٣} . ويقول : "وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ^{٤٤} . ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إِذَا اسْتَجَنَحَ اللَّيْلُ أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ فَكُفُّوا صَيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حَيْثُذَا إِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَأُوذِكِ سِقَاءَكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَخَمِّرْ إِيَّاهُ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ تَعَرَّضُ عَلَيْهِ شَيْئًا " ^{٤٥} .

كما أمر الله تعالى بالاستعاذه عند تلاوة القرآن : " فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " ^{٤٦} . وذلك لأن تلاوة القرآن فيها ثواب عظيم ، فإذا لم يأت القاريء بالاستعاذه وقعت الوسوسة في قلبه ، وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة ، أما إذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوسوس ، وبقي الثواب مصوناً عن الإحباط ^{٤٧} . كما ورد أن قراءة آية الكرسي تصد الشيطان ، وتبعده عن الإنسان وتحفظه من كيدته ، كما ثبت في الحديث الذي يرويه أبو هريرة لما قال له الجني: إقرأ آية الكرسي إذا أويتَ إلى فراشك ، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ " ^{٤٨} . والفقهاء في الدين والعلم يقي صاحبه من خداع الشيطان ، كما أن الجهل يورد الإنسان موارد الهلاك

فيظهر أن الشيطان له أثر كبير في إضلال الناس ، ولكن الله لم يسلطه على عباده – إلا على من اختار منهم الكفر وأصر عليه – وهكذا يبيِّن الله تعالى كيفية تجنبه بعد التحذير من عداوته ، ويوضح كيفية مقاومته بالاستعاذه منه ، والمداومة على ذكر الله تعالى ، وقراءة القرآن، والفقهاء والعلم بطرق كيدته ومداخله ، فمن اختار بعد كل ذلك متابعة الشيطان

^{٤٣} النساء : ١٠٣

^{٤٤} الأنفال : ٤٥

^{٤٥} صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، حديث رقم ٣٠٣٨ ، صحيح مسلم ، كتاب الأشربة ، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء ، حديث رقم ٣٧٥٥ .

^{٤٦} النحل : ٩٨

^{٤٧} تفسير الرازي ، ١٠ / ١١٩ ، تفسير الزمخشري ، ٢ / ٥٩١ .

^{٤٨} صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، حديث رقم ٣٠٣٣ ، صحيح مسلم ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة ، حديث رقم ٤٦٢٤ .

وموالاته ، وترك طاعة الله تعالى ، فقد خسر خسراناً مبيهاً ، ولا يلومن إلا نفسه . يقول تعالى : " وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا " ٤٩ .

وإذا وضح تأثير الشيطان في الإنسان ، وقدرة الإنسان على مقاومة هذا المؤثر ، فما مدى تأثير الإنسان في الإنسان ؟ وهل يمكن مقاومته ؟

تأثير الإنسان في أخيه الإنسان

لقد دعا الإسلام الإنسان إلى أعمال عقله والتفكير للوصول إلى الحق ، كما دعاه إلى الاستقلال برأيه وعدم متابعة غيره — حتى لو كان على الحق — إلا بعد تيقنه من صدق الداعي واستقامة أمره ودعوته ، لذلك كان سبحانه وتعالى في بعثه للرسول يؤتيهم المعجزات التي تدل على صدقهم ، ومن ثم محاولة إدخال الناس في دين الله تعالى بالحوار والحجة والإقناع ، كل ذلك حتى لا يتأثر الإنسان بأخيه من غير دليل وحجة تقوده لاتباعه ، لأن من يترك عقله ويتبع الآخرين بلا حجة يهلك نفسه ويذلها ، لذا ذم الله تعالى المقلدين لأبائهم من غير تمحيص ، وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من اتباع الناس ، وحث على توطين النفس على التدقيق قبل الاتباع بقوله : " لَا تَكُونُوا إِمَّةً تَقُولُونَ إِن أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِن أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا " ٥٠ . والإنسان بطبعه وجبلته التي خلق عليها ينشأ على اتباع غيره ، فيتعلم من أباؤه ما يراه ، ويحاول محاكاة كل ما تقع عليه عيناه ، ولكن عند اكتمال العقل يبدأ بتفسير الأشياء ، ومعرفة الخير والشر ، لذلك تبدأ المحاسبة بعد إكتمال العقل والتمييز . وقد جاءت كثير من الآيات التي تبين أن الله بعث الرسل من أجل هداية البشر إلى الحق ، وعبادة الله الواحد ، وأن بعضهم يرفضون الإيمان ، ويدعون غيرهم إلى الشرك والضلال ، ويحثونهم على تكذيب الرسل وعدم اتباعهم ، مما يدل على تأثير الإنسان في أخيه الإنسان في فتح بصيرته حتى يرى الحق فيتبعه فينجيه ، أو بطمسها فلا ترى شيئاً فيهلكها . يقول تعالى : " مَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " ٥١ . وقد سمي الله تعالى الإنسان الذي

٤٩ النساء : ١١٩

٥٠ سنن الترمذي كتاب البر والصلة ، ما جاء في الإحسان والعفو ، حديث رقم ١٩٣٠ ، مسند أحمد ، كتاب أول سند البصريين ، باب حديث عم أبي حرة الرقاشي ، حديث رقم ١٩٧٧٤ ..

٥١ الأنعام : ١٤٤

يتسبب في إضلال أخيه شيطاناً ، لأنه يفعل فعل الشيطان ، ولكن الشيطان يوسوس في الخفاء ويزين الباطل أما الإنسان فهو يدخل إلى أخيه الإنسان من عدة مداخل : يحاجه عقلياً ويزين له السوء حتى يراه حسناً فيتبعه وهو على يقين من أنه على حق ، ثم أنه يقوم بإقناعه بأن ما يدعو إليه هو الأفضل ، وأنه لا يريد له إلا الخير الذي هو فيه ، ثم أنه يصعب الاحتراز منه بخلاف الشيطان الذي يمكن التعوذ منه . ولقوة تأثير الإنسان في الإنسان يحذر الله عزوجل نبيه صلى الله عليه وسلم من فتنة الكفار ، فيقول : " وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ " .^{٥٢}

ويقول تعالى : " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ " .^{٥٣} قال قتادة ومجاهد والحسن : إنَّ من الإنس شياطين ، والشيطان العاتي المتمرد عن كل شيء ، وإن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرّد من الإنس ، وهو شيطان الإنس ، فأغراه بالمؤمن ليفتنه .^{٥٤} ورد عن ابن مسعود : الكهنة هم شياطين الإنس .^{٥٥}

لأن الكاهن ومثله العراف يضلان الناس بادعائهم معرفة الغيب، والإنسان لحرصه على الخلود وخوفه من الغد ، يحاول التطلع لمعرفة ذلك ، فيلجأ إليهما ليشعر بالطمأنينة . وقد تصل بالداعي إلى المعاصي أن يوهم داعيه بأنه سيتحمل نتيجة عمله إن هو تابعه فيه ، ، فإن كان على باطل فهو سيعمل وزر ما سيفعله ، وفي ذلك مزيد إغراء وحجة بأنه على حق .

ونجد ذلك المعنى في قوله تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ " .^{٥٦} قال مجاهد : قال المشركون من قريش : نحن وأنتم لا نبعث فإن كان عليكم وزر فعلينا. ولكن الله تعالى يكذبهم في ذلك بقوله في آخر الآية السابقة : " وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " ، وذلك أن من يعمل المعاصي استجابة لإغواء غيره لا

^{٥٢} المائدة : ٤٩ .

^{٥٣} الأنعام : ١١٢ .

^{٥٤} تفسير البغوي ، ٤٠٦ / ٢ .

^{٥٥} الدر المنثور في التفسير بالمأثور " عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، " ، ٣ / ٣٤٢ .

^{٥٦} العنكبوت : ١٢ .

يعفي من العقاب ، وإن كان من تسبب في إغوائه سيجازى على ذلك . يقول تعالى عقب الآية السابقة : "وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ" ^{٥٧} .

وكما سلط الله تعالى على من أبي الإيمان واختار الكفر الشيطان ليضله ، يسلط عليه أيضاً قرناء السوء من البشر . يقول تعالى : " وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ " ^{٥٨} . وهؤلاء القرناء من الجن والإنس أيضاً ^{٥٩} . فالله قبيض لهم بما اطلع على فساد قلوبهم قرناء سوء من الجن ومن الإنس ، يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مراكب الذين كتب عليهم الخسران ^{٦٠} .

وقد يكون الاتباع للغير تقليداً ، والتقليد عادة يكون لمن له مكانة في نفس التابع ، سواء أكان أباه أو رئيسه أو صاحبه ، يقول تعالى : " بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا " ^{٦١} . والتقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة ، وعلى هذا فمن قبل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظر في معجزته يكون مقلداً ، وأما من نظر فيها فلا يكون مقلداً ^{٦٢} .

وهذا مما يدل على وجوب إعمال العقل والفكر قبل الاتباع ، والذي يعمل تابعاً لغيره ليس له أجر في عمله وإن كان صالحاً ، كما أنه يأثم في متابعتة لغيره في عمله الطالح . يقول ابن تيمية : وأما من قلده شخصاً دون نظر بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً ^{٦٣} . ويقول الغزالي : وهذا حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام ، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب ، وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة ، بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار ^{٦٤} . ومن هنا يفهم أنه لا بد

^{٥٧} العنكبوت : ١٣

^{٥٨} فصلت : ٢٥

^{٥٩} تفسير القرطبي ، ٣٠٤/١٥ .

^{٦٠} الظلال ، ٣١١٩ /٥ .

^{٦١} البقرة : ١٧٠

^{٦٢} تفسير القرطبي ، ٢١١ /٢ .

^{٦٣} الفتاوى الكبرى ، ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن محمد قاسم ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، ١٣١٨ هـ - ١٩٩٧ م ، ٧ / ٥٠ .

^{٦٤} شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ، ابن أبي العز علي بن علي بن أبي العز الحنفي ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي

وشعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، ص ١٨٧ .

من التدقيق والتفكير قبل الاختيار . جاء في الحديث الصحيح : " ما من مؤلودٍ إلا يُولدُ على الفطرةِ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " ٦٥ ،

وهنا يتبين أهمية العلم اليقيني لتمام التصديق ، وقد ذكر الله تعالى الآية التي نهت عن اتباع الآباء ، بعد الآية التي تنهي عن اتباع خطوات الشيطان . وفي ذلك كما يقول الفخر الرازي : إلا تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة خطوات الشيطان ، وبين متابعة التقليد ، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال ، وترك التعويل على ما يقع في خاطر من غير دليل ، أو على ما يقوله الغير من غير دليل ٦٦ . وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجالسة الأشرار ودعا إلى مجالسة الأخيار ، فكيف باتخاذهم أصحاباً ! يقول صلى الله عليه وسلم : " مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْدِثَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً " ٦٧ ، فالجليس الصالح ينتفع منه الإنسان بالافتداء أو التذكير أو تعلم علم ينفع ، وجليس السوء يؤدي بفعله المنكر اتباعاً أو مشاركة ، وفي الحديث " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " ٦٨ .

فيتبين أن الإنسان يتأثر بغيره فيتبعه ، سواء أكان مقتدياً به كوالده ، أو مؤتمراً بأمره كرئيسه ، أو موادئاً له كرفيقه وصديقه ، فإن كان هذا المتبوع مؤمناً قاده إلى الخير ، وإن كان كافراً عاصياً قاده إلى الشر والهلاك ، لأنه يؤثر في إرادته مما يؤدي إلى توجيه اختياره إلى ما يريده هو ، فيترك اختياره الحر ويصير تابعاً له ، لذا كان توجيه الله عز وجل للناس بإعمال العقل والفكر ، والنظر والاستدلال قبل الاتباع حتى للأنبياء ، وكان توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بتوطين النفس على الاستقلالية ، وعدم الاتباع إلا بعد التدقيق الشديد ، والعلم الذي يوصل إلى الطريق الحق .

٦٥ صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، حديث رقم ١٢٩٦ ، صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، حديث رقم ٤٨٠٣ .

٦٦ تفسير الرازي ، ٨ / ٣ ، وينظر تفسير القرطبي ، ٢ / ٢١١ ، والظلال ، ١ / ١٥٥ .

٦٧ صحيح البخاري ، كتاب الذبائح والصيد ، باب المسك ، حديث رقم ٥١٠٨ ، صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب مجالسة الصالحين ، حديث رقم ٤٧٦٢ .

٦٨ سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس ، حديث رقم ٤١٩٣ ، مسند أحمد ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب مسند أبي هريرة ، حديث رقم ٧٦٨٥ ، سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في أخذ المال بحقه ، حديث رقم ٢٣٠٠ .

ومن المؤثرات التي تحدث خللاً في الاختيار ، التأثير على العقل، فكيف يتم ذلك التأثير ؟ وهل يمكن مقاومته ؟ وما هو الأثر المترتب على ذلك ؟

التأثير في العقل

ومن المؤثرات التي توجه إرادة الإنسان فتؤدى إلى خلل في حرية الاختيار التأثير في العقل ، والعقل هو الآلة التي يتم بها الاختيار بين البدائل المختلفة ، وهو الذي بعدمه يسقط التكليف ، وبغيابه ونقصه يرفع التكليف حتى وجوده وكماله . والتأثير فيه قد يكون تأثيراً مباشراً كلياً ، يؤدي إلى خلل في العقل كالجنون ونحوه ، مما يفقد القدرة على التمييز، فيعتبر صاحبه غير مكلف، لأنّ العقل هو مناط التكليف ، وقد يكون التأثير مباشراً ولكنه جزئياً كالعقل الذي يحدث له غياب وقتي بنوم وسهو ونحوه ، أو يكون غير مكتمل كعقل الصبي الذي لم يبلغ ، وهؤلاء جميعاً يرفع عنهم التكليف مدة بقاء هذا الأثر، ومن ثم يدخلون في جملة المكلفين بأمر الله تعالى ونهيه . يقول صلى الله عليه وسلم : **رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ** " ^{٦٩} . أما التأثير غير المباشر وهو المقصود ، فهو تأثير الهوى وغلبته على عقل الإنسان ، وطغيانه عليه حتى يؤدي إلى إضعاف قدرته في الاختيار، فيجعل الإنسان تابعاً لهواه تاركاً لعقله ، فكيف يمكن للإنسان أن يقاوم هذا المؤثر الذي هو ملازم له ملازمة عقله ؟

وهو النفس إرادتها ، والهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ^{٧٠} ويقول ابن الجوزي :
الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ^{٧١} ، وجاء في التعريفات أن الهوى ميلان النفس إلى ما تستلذه

^{٦٩} سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ، حديث رقم ٣٨٢٥ ، سنن ابن ماجة ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ، حديث رقم ٢٠٣١ .

^{٧٠} لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري ، دار صادر، بيروت ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، باب الواو والياء من المعتل ، فصل الهاء ، مادة "هوى" ، ٣٧٢ / ١٥ .

^{٧١} الطب الروحاني ، ابن الجوزي ، مكتبة مصر ، سعيد جودة السحار ، ط أولى ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ٨ .

الشهوات من غير داعية الشرع ^{٧٢} . أي أنّ الهوى هو ما يريده الإنسان من غير النظر إلى ما يجلبه من نفع أو ضرر ، ومن غير اعتبار للشرع ، فإله سبحانه وتعالى الذي خلق البشر وركب فيهم الشهوات هو الأعلّم بمدى تأثيرها في الإنسان وترجيحها لكثير من الاختيارات على وفق إشباعها ، حذر الإنسان من الإنسياق وراء شهوته من غير تدبر وتعقل في عواقب هذا الأمر . يقول تعالى : "وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ" ^{٧٣} . ويقول : " فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ " ^{٧٤} . ويقول : " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ " ^{٧٥} . واتباع الهوى قد يقود إلى الكفر ، لأنه اتباع من غير النظر إلى الحجة والدليل ، ومن غير تحكيم للعقل .

يقول تعالى : "وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" ^{٧٦} . جاء في تفسير هذه الآية أن الأهواء هي المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة ^{٧٧} . أي أنّ الاختيار العقدي تم على أساس الهوى وميل النفس ، من غير النظر العقلي لمعرفة الحق ، وقد يكون موقناً بعقله ولكن هواه طغى عليه ، فاختر الكفر لأنه ملائم لطبعه وميله . ويرى الرازي أن من اعتقد في الباطل أنه حق فإنه لا يكون متبعاً لهوى النفس ، بل يكون في ظنه أنه متبع للهدى ، فأما الذين يعلمون بقلوبهم ثم ينكرون بألسنتهم فهم المتبعون للهوى ^{٧٨} . وهذا يوافق رأي ابن تيمية الذي يقول : القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً له ودينياً ، ولكن يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق ، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه ^{٧٩} . أي الذي يعمل عقله فلا يصل به إلى الحق ويكون اعتقاده باطلاً ليس ممن يتبعون أهواءهم ، وإنما متبع الهوى هو الذي يرجح الهوى على العقل ، يعلم الحق ولكنه يتبع هواه وما تميل إليه نفسه ، وهذا القول يخالف رأي علماء العقيدة ، الذين يسمون من يضل بالشبهات بأنهم أهل الأهواء .

^{٧٢} التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٥ م ، ص ١٦٠ .

^{٧٣} المائدة : ٤٨

^{٧٤} ص : ٢٦

^{٧٥} القصص : ٥٠

^{٧٦} المائدة : ٧٧

^{٧٧} تفسير البغوي ، ٢ / ٢٨٥ ، تفسير الرازي ، ٦ / ٦٧ ، تفسير الألوسي ،

٦ / ٢٥٦ .

^{٧٨} تفسير الرازي ، ٢ / ١٣٨ .

^{٧٩} الفتاوى الكبرى ، ٧ / ٣٢٤ .

لقد بين الله تعالى — بعد تحذيره للناس من اتباع الهوى — أن من اتبع هواه بعد علمه بالحق ليس له من ناصر ينصره من دون الله إن أنزل به عقوبة ، وقد جاء الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقوله سبحانه : " وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " ^{٨٠} . ويقول محذراً : " وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ " ^{٨١} و الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ^{٨٢} . وقد جاء التحذير كذلك لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من اتباع من يتبعون أهواءهم ، من اليهود والنصارى ومن على طريقتهم . يقول تعالى : " وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ " ^{٨٣} . وقد قيل : إن الهوى إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه ^{٨٤} . وقد يقود اتباع الهوى كذلك إلى الميل عن الحق والحكم بالجور وعدم العدل ، لذا حذر الله تعالى الحكام من اتباع الهوى . يقول تعالى : " يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ " ^{٨٥} . أي لا تؤثر الهوى على الحق فيقودك إلى الضلال الذي يرد في النار . ويقول تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا " ^{٨٦} ، لا تتبعوا الهوى لتعدلوا أي لتكونوا عادلين ، لأن اتباع الهوى يحمل على الشهادة بغير الحق وعلى الجور في الحكم ^{٨٧} . فيتبين هنا أن الله تعالى حذر الناس من اتباع الهوى ومطاوعة النفس في كل ما ترغب فيه لأن ذلك يؤدي إلى الكفر بالله ، ويقود صاحبه إلى النار ، كما كان التحذير للحكام والقضاة للحكم بالحق ، وعدم اتباع الهوى حتى لا يجوروا ، لأن في جور الحكام والقضاة فساد كبير .

^{٨٠} البقرة : ١٢٠

^{٨١} البقرة : ١٤٥

^{٨٢} تفسير الطبري ، ١ / ٥٩٦ ، تفسير القرطبي ، ٢ / ٩٤ .

^{٨٣} المائدة : ٧٧

^{٨٤} سنن الدارمي ، كتاب المقدمة ، باب اجتناب أهل الأهواء ، حديث رقم ٣٩٧ ، "وانفرد به "

^{٨٥} صاد : ٢٦

^{٨٦} النساء : ١٣٥

^{٨٧} تفسير الطبري ، ٥ / ٣٧٥ ، تفسير البغوي ، ٢ / ١٧١ ، تفسير الزمخشري ، ١ / ٦٠٩ .

يقول تعالى : " وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ " ^{٨٨} ، كما كانت الدعوة إلى مخالفة الهوى وعدم الإنسياق وراء الشهوة ، لأن ذلك يقود إلى الاجترار على حرمات الله تعالى ، وسهولة ارتكاب المعاصي مما يؤدي إلى الهلاك .

مقاومة الإنسان لمنازعة النفس وطغيان الهوى

النفس تنازع الإنسان لإشباع شهواتها ، والعقل جعله الله ضابطاً لها، حتى يتم ذلك وفق منهج الله سبحانه وتعالى ، والإنسان يكون هكذا في حالة شد وجذب بين عقله ونفسه . يقول ابن حزم : إن الله تعالى خلق نفس الإنسان ميسرة مميزة عاقلة ، عارفة بالأشياء على ما هي عليه ، وخلق فيها قوتين متضادتين متفاوتتين في التأثير، وهما التمييز والهوى ، كل واحدة منها تريد الغلبة على آفاق النفس ^{٨٩} . ويقول ابن الجوزي : إعلم أن الأدمي لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة يجتلب بذلك ماينفعه ، ووضع فيه الغضب ليدفع به مايؤذيه ، أعطي العقل كالمؤدب ، يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب . وخلق الشيطان مرضاً له على الإسراف في اجتلابه واجتنابه ^{٩٠} . مما يعني أن خلقه كان متعادلاً ، فإنه لما أحيط بالأعداء من الداخل بالهوى والشهوة ، ومن الخارج بالشيطان وأقران السوء ، منحه الله ما يدافع به عن نفسه من الاستعباد والخضوع لغير الله ، منح العقل وحرية الإرادة . فالعقل يقود إلى الخير بضبطه للنفس التي تقود إلى الشر، وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه ، وكسوتموه ، وأطعمتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه ، وأعريتموه ، وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية ، قالوا : يا رسول

^{٨٨} المؤمنون : ٧١

^{٨٩} الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ٨١ / ٢ ،

^{٩٠} تلبس إبليس ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، ص ٢٣ .

الله هذا شر صاحب في الأرض ، قال: " فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبيكم " ^{٩١} وهو ما بيّنه الله تعالى في كتابه من أن كل ما يصيب الإنسان من شر سببه نفسه ، فيقول : " وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ " ^{٩٢} . وهوى النفس أشد من الشيطان ، لأن الشيطان مؤثر خارجي تسهل مقاومته وهوى النفس وشهواتها ملازمة للإنسان وتصعب مقاومتها . فإذا استطاع الإنسان أن يقهر نفسه ويخالفها إلى الخير استشعر العزة والقوة والغلبة ، لأنه قوى بإرادته الحرة ، وصار الهوى تابعاً له . يقول ابن الجوزي : اعلم أن الإنسان إذا وافق هواه — وإن لم يضره — وجد من نفسه ذلاً لمكان أنه مغلوب ، وإذا قهر هواه وجد من نفسه عزاً لأجل أنه غالب ^{٩٣} . فكرامة الإنسان تقتضي أن يكون الإنسان عبداً لخالقه لا لسواه ، وإرادته الحرة تستدعي أن يختار الإنسان ما يريد لما فيه من نفع يعود عليه ، ويترك ما يضره ، وقد وعد الله تعالى الذي يقهر نفسه ولا يتبع هواها بالجنة ، قال تعالى : " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ " * " فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ " ^{٩٤} ، وتكون مقاومة الهوى بمخالفته ، واتباع منهج الله تعالى ، وذكر الله تعالى في كل حين ، لأن من يغفل عن ذكر الله ، يكون تابعاً لهواه ، يقول تعالى : " وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا " ^{٩٥}

المؤثرات والمسؤولية

ثبت بالنصوص القاطعة من القرآن والسنة الصحيحة تأثير الشيطان في الإنسان ، وأنه قد يقوده إلى الضلال مما يورده النار ، فبوسوسته وتزيينه ، ومعرفته لمواطن ضعف الإنسان ، وأنه لا يرى وقربه من الإنسان وملازمته له ، كان التشديد على الحذر منه ، والتعريف بعداوته ، ووجوب التسلح لمواجهة بذكر الله والاستعاذه حتى لا يجد هذا العدو الخفي منفذاً ينفذ منه ، فيؤثر في اختيار الإنسان في اعتقاده وعمله وسعيه ، ولأن تأثيره دائماً تأثير سلبي يقود إلى الضلال والباطل ، تعددت النصوص في التعريف به ، وبطرق كيده ومدخله ، والتحذير الشديد والوعيد من اتخاذه ولياً ، وذلك لأن إبليس اللعين قد أقسم بعزة الله

^{٩١} تفسير القرطبي ، ٢١٠/٩ .

^{٩٢} النساء : ٧٩

^{٩٣} الطب الروحاني ، ص ١١ .

^{٩٤} النازعات : ٤٠ - ٤١

^{٩٥} الكهف : ٢٨

على إغواء بني آدم ، واستثنى المخلصين . ، وهذا يدل على أن الأمر متعلق باختيار الإنسان للإيمان والإخلاص لله ، أو الكفر واتباع الشيطان ، وإبليس يعلم أنه لن يستطيعهم كلهم لكنه سيغوي بعضهم ، وقد بين الله تعالى معرفة إبليس بهذا الاستثناء ، مما يؤكد أن الأمر متروك لحرية وإرادة الإنسان واختياره ، وأن إبليس لم يسلط عليه تسلط الاستحواذ والتمكين التام . يقول تعالى : " إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ " ^{٩٦}

أي أن الإنسان يحاسب باختياره الخاطيء ، ولا ترفع عنه المسؤولية بحجة خداع ومكر الشيطان ، أو بالتأويل الخاطيء على أنه كان يعتقد أنه على صواب . يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية : وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها ^{٩٧} . ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا " * " الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا " * " أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا " * " ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا " ^{٩٨} . والذي يتخذ الشيطان ولياً لا يستطيع نصرته على أولياء الله تعالى ، لأن كيد الشيطان كما بين الله تعالى كان ضعيفاً ، فكيف إذا كان مقابل كيد الله تعالى ؟ وذلك يعني أنه ضعيف حتى في مقابل كيد الإنسان ، لأن الله تعالى أعطى الإنسان العقل الذي يفوق به الشيطان ، وبين له بالمنهج السماوي كيفية مقاومته وصدده ، وعدم الاستجابة لشبهاته حتى لا تؤثر في اختياره لعقيدته ، وعدم الانسياق وراءه فيعمل عمله . وتقوى الله تعالى هو العاصم الأكبر من ارتكاب الظلم والمحرّمات . يقول تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ " ^{٩٩} وهذا يؤكد أن الأمر لم يخرج عن دائرة الاختيار ، برغم وجود هذا المؤثر . وقد بين الله تعالى في كثير من الآيات أن من يتبع الشيطان يتحمل المسؤولية تحملاً كاملاً ، فيعاقب على اعتقاده الباطل ، وعمله الطالح . قال تعالى : " يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا " * " أُولَئِكَ "

^{٩٦} الأعراف : ٣٠

^{٩٧} تفسير الطبري ، ٨ / ١٨٨ .

^{٩٨} الكهف : ١٠٣ - ١٠٦

^{٩٩} الأعراف : ٢٠١

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا^{١٠٠} فوجود الشيطان وتأثيره لا يلغي أن الإنسان لا يزال عاقلاً بالغا ، عالماً بمنهج الله تعالى ، غير مكره مختاراً حر الإرادة ، فيكون تحمله لعمله تحملاً كاملاً ، وجزاؤه عليه جزاء عادلاً ، والله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون . والإنسان يؤثر في أخيه الإنسان لا شك في ذلك ، لأن الله جعل الرسل من البشر ، يدعو الناس إلى الحق وعبادة الله الواحد ، وقد استجاب الكثيرون لداعي الله الذي كان عبر الرسل ، مما يدل على مقدرة الإنسان على التأثير ، ولكنه يختلف عن تأثير الشيطان ، فهو تأثير مباشر غير خفي ، عن طريق الحوار والجدل والحجة والإقناع ، وقد يكون تأثيراً إيجابياً كتأثير الأنبياء والصالحين ، وقد يكون سلبياً كتأثير الكافرين والمنافقين والعاصين ، وهذا يؤكد أن الأمر يقوم على الاختيار الحر ، فيختار الإنسان متبوعه بكامل إرادته ، وإلا فلم اختار بعض الناس اتباع الأنبياء ، واختار الآخرون اتباع الضالين المضلين ؟ وهذا المؤثر ملازم للإنسان ، لأن الإنسان يعيش مجتمعاً بغيره ، متأثراً به مؤثراً فيه ، لذا كان التحذير من التقليد والاتباع قبل النظر . فالمسؤولية المترتبة على العاقل العالم المختار مسؤولية كاملة ، إلا إذا كان هناك إكراه ، والإكراه نفسه لا يتصور إلا في الفعل ، أما المعتقد فلا يمكن الإكراه عليه . يقول تعالى : " مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " ^{١٠١} . وهنا كان رفع الإثم عن القول المخالف للمعتقد الصحيح ، أما الاعتقاد نفسه فيتم بإرادة حرة . يقول أبو منصور: الديانات هن اعتقادات لا أفعال تكتسب ، إذ الاعتقادات لا يجري عليها القهر والغلبة ، ولا لأحد من الخلائق على اعتقاد آخر ومنعه سلطان ، وهن أفعال القلوب خاصة ^{١٠٢} . وهذا يعني أن الله تعالى أخرج القلوب من دائرة الإكراه ، فلا يستطيع أي مخلوق أن يكره الإنسان على الاعتقاد ، أو الحب والكره .

والهوى تأثيره شديد في الإنسان ، لأنه هوى نفسه التي بين جنبيه لا يمكن الانفكاك منها ، ولا يمكن مقاومته إلا باتباع منهج الله تعالى ، وتغليب طاعة الله وعبادته على طاعة الهوى

^{١٠٠} النساء : ١٢٠ - ١٢١

^{١٠١} النحل : ١٠٦

^{١٠٢} التوحيد ، أبو منصور الماتريدي ، تحقيق فتح الله خليف : دار الجامعات المصرية ، بدون ت ، " ، ص ٣٦٩ ، وانظر الفتاوى الكبرى ، ٣٩٣ / ٧ ، والفصل ، ٨١ / ٢ .

وعبادته ، وتأثير الهوى كتأثير الشيطان ، يؤثر تأثيراً سلبياً مما يقود بصاحبه إلى الهلاك ، وهو لا يقود لخير أصلاً . واتباع الهوى يتم باختيار تام ، وترجيح له على الهدى ، وفي قدرة الإنسان أن ينهي نفسه عن اتباع هواها . واتباع الهوى قد يكون في المعتقد ، وقد يكون في العمل ، ففي المعتقد لا يكون إلا بعد العلم بالحق وإيثار الهوى عليه . يقول تعالى : " فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ " ^{١٠٣} . يقول الطبري : اعلم أنهم إنما يتبعون في تكذيبهم محمداً وما جاءهم به من عند الله أهواء أنفسهم ويتركون الحق وهم يعلمون ^{١٠٤} . ويقول الزمخشري : فإن لم يستجيبوا لدعائك إلى الإيمان بالكتاب والهدى ، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تنب لهم حجة إلا اتباع الهوى ^{١٠٥} . وهذا يعني أن اختيارهم للهوى على الهدى بعد العلم ووجود العقل، فكان بحرية تامة . وترجيح الهوى في العمل يعني اتباع الشهوات، وقد حذر الله تعالى من السير وراء الشهوات لأنها تردى صاحبها في النار، وبما أن الله قد جعلها في تركيبة الإنسان فقد وضح في منهجه طرق إشباعها بما يصلحها ولا يطغيها على غيرها ، ومنح الإنسان العقل ليضبط به الشهوة ، فالذي يختار الهوى ويتبع شهوته يتحمل تبعه اختياره .

وقد جاءت كثير من الآيات التي تبين تحمل الإنسان تبعه اختياره ، فإن كان على الهدى فجزاؤه الجنة ، وإن كان على ضلالة فجزاؤه النار، يقول تعالى : " تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ " ^{١٠٦} فمن تابع الشيطان ولم يكلف نفسه عناء مقاومته ، فقد اختار ذلك بكامل إرادته فكان استحقاقه للعقاب استحقاقاً عادلاً . وإذا ألغى الإنسان عقله ، وتبع غيره تقليداً فقد اختار ذلك بحرية تامة ، ومن إنخدع لغيره بتصديق شبهاته وابتداعه فقد كذب الله تعالى في الحق الواضح ، ومن اختار موالة الكفار والعصاة ، وترك موالة الله تعالى فقد اختار ذلك أيضاً ، والذي يلغى عقله

^{١٠٣} القصص : ٥٠ .

^{١٠٤} تفسير الطبري ، ١٠٢ / ٢٠ .

^{١٠٥} تفسير الزمخشري ، ٤٢٥ / ٣ .

^{١٠٦} النساء : ١٣ - ١٤ .

ويجعل الهوى والشهوة تغطي عليه قد فعل ذلك بحرية تامة ، فيتحمل مسؤوليته كاملة ،
وينال جزاءه الذي يستحقه .

النتائج

الشیطان له الأثر الكبير في اختيار الإنسان . ولكن الله لم يسلطه إلا على من اختار الكفر
وأصر عليه .

الإنسان يؤثر في أخيه الإنسان لكن تأثيره قد يكون إيجابياً وقد يكون سلبياً

الهوى يعتبر من أشد المؤثرات وهو بوابة الشيطان للكيد للإنسان

وجود كل هذه العوامل المؤثرة في حرية الإنسان لا تسلب الإنسان اختياره

تحمل الإنسان تبعه اختياره مع وجود هذه العوامل .

وجوب عدم الاستسلام لهذه العوامل ودفع تأثيرها بالطرق التي أوضحها الشرع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م
سنن الترمذي ، الترمذي محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، الشركة العالمية للبرامج
"حرف"،الأردن، ١٩٩٣م

مسند أحمد ، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، الشركة العالمية للبرامج "حرف"،الأردن،
١٩٩٣م

مفاتيح الغيب ، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر، دار الفكر، لبنان ، ١٤١٢ هـ -
١٩٩٣ م ،

صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري ، الشركة العالمية للبرامج
"حرف"،الأردن، ١٩٩٣م

صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، الشركة العالمية للبرامج
"حرف"،الأردن، ١٩٩٣م

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن القيم ، تحقيق طه عبدالرؤوف ، مكتبة الصفا ، مصر
معالم التنزيل في التفسير والتأويل، أبي محمد الحسن بن مسعود الفراء البغوي ، دار الفكر ،
لبنان ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار إحياء التراث
العربي ، بيروت ، ط أولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ،
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمر
الزمخشري الخوارزمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ثانية ، ١٤٢١هـ -
٢٠٠١م ،

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ضبط وتعليق محمود
شاکر، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط أولى ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ،
سنن أبي داوود ، أبو داوود سليمان بن الأشعث أبو داوود السجستاني الأزدي ، الشركة العالمية
للبرامج "حرف"،الأردن، ١٩٩٣م

سنن ابن ماجة ، ابن ماجة محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، الشركة العالمية للبرامج
"حرف"،الأردن، ١٩٩٣م

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين محمود
الألوسي البغدادي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

الدر المنثور في التفسير بالمأثور " عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت،
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، "

الفتاوى الكبرى ، ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن محمد قاسم ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ،
١٣١٨ هـ - ١٩٩٧ م ، ج ٧ ص ٥٠ .

شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ، ابن أبي العز علي بن علي بن أبي العز الحنفي ، تحقيق
عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار
صادر، بيروت ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطب الروحاني ، ابن الجوزي ، مكتبة مصر ، سعيد جودة السحار ، ط أولى ، ١٤٢٢ هـ -
٢٠٠٢ م .

التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٥ م
سنن الدارمي ، الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، دار الكتاب العربي ، ط
أولى ، ١٤٠٧ هـ

الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم
الأندلسي الظاهري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ،

تلبيس إبليس ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي ، دار الفكر ،
بيروت ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

التوحيد ، أبو منصور الماتريدي ، تحقيق فتح الله خليف : دار الجامعات المصرية ، بدون ت